سورة الملك ..
وقفات وهدايات

جمعَها

خالد بن عبد العزيز الباتلي

جميع الحقوق محفوظة لمنصة بناء العلمية.
ويُسمح بتداوله ونشره للأغراض الدعوية، بشرط عدم الزيادة أو الحذف.
النشرة الأولى || ذو القعدة ١٤٤٦ هـ

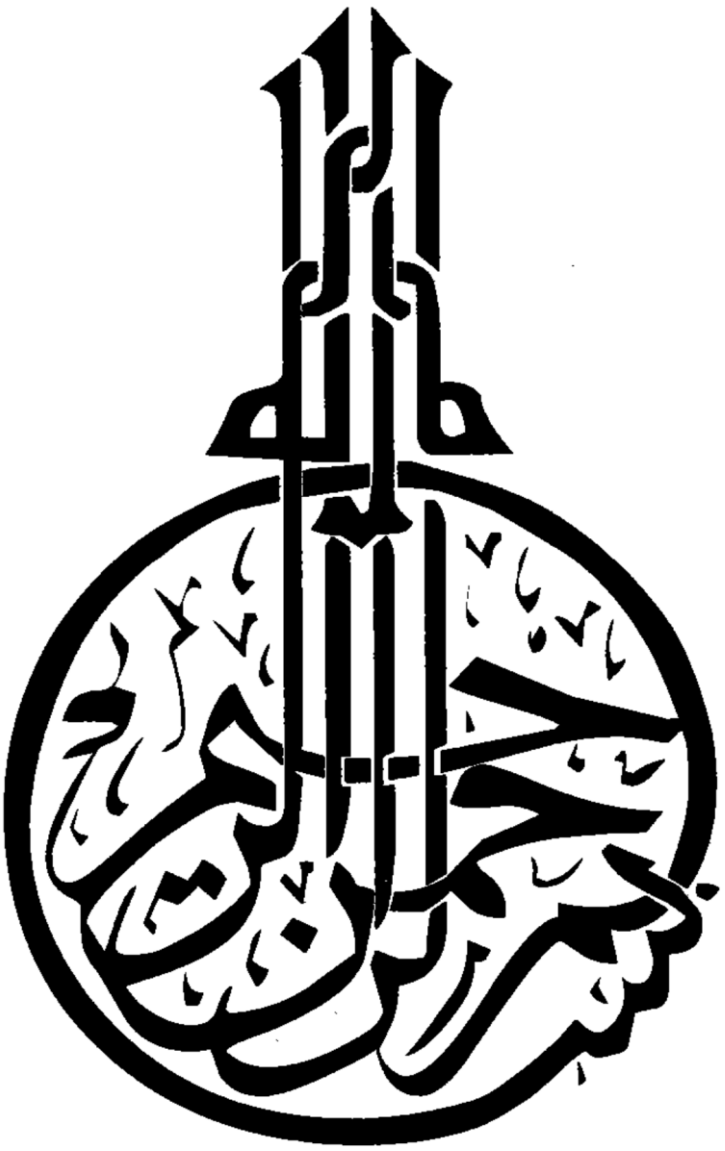

مقدمات بين يدي السورة

الحمد لله الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علَّمَه البيان، والصلاة والسلام على خير عباد الله، وعلى آله وصحبه. وبعد ..

فهذه دوحة في رحاب كتاب الله، نتعلم ونتدارس ونستهدي، وقد أصابنا ما أصابنا من قسوة القلوب، وكثرة الذنوب، فحاجتُنا ماسة إلى المعين العذب الصافي، نستلهم منه شفاء وهدى ورحمة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

وقد وقع الاختيار على سورة تبارك المباركة، سورة الملك، وما فيها من الهدايات في وقفات وتأملات.

وقبل البدء فهذه بعض المقدمات المهمة بين يدي السورة:

المقدمة الأولى: مكية السورة.

هذه السورة مكية بالإجماع. ومن معالم السور المكية:

١- الدعوة إلى التوحيد، وإثباتُ الرسالة، وإثباتُ البعث والجزاء، والوعد والوعيد.

٢- مجادلة المشركين بالبراهين العقلية، والآياتِ الكونية.

٣- وضع الأسس العامة للتشريع وفضائل الأخلاق، وإبطالُ ما ينافيها من مساوئ الأخلاق مما كان يفعله أهل الجاهلية.

المقدمة الثانية: أسماء السورة.

ذكر أهلُ العلم عِدَّةَ أسماء للسورة، منها:

١- **المُلك**، وهو أشهر الأسماء في المصاحف وكتب التفسير والسُّنة، وبه عنونها الإمامُ البخاري في كتاب التفسير من صحيحه[1].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٥٨).

٢- **تبارك**، أخْذًا من افتتاح السورة.

٣- **المانعة**، كما جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا نُسَمِّيها فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ المانِعَةَ»(١).

٤- **المُنجِية**، لما ورد في بعض الآثار أنها تنجي من عذاب القبر.

وهي ثلاثون آية بنص الحديث(٢). وذكر النسفي أن كلماتها ثلاث وثلاثون وثلاث مئة كلمة(٣).

المقدمة الثالثة: فضل السورة.

ورد في فضلها أحاديث وآثار، من أقواها:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ سُورَةً مِنَ القُرْآنِ ثَلاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ سُورَةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾** [الملك: ١]»(٤).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «يُؤْتَى الرَّجُلُ فِي قَبْرِهِ فَتُؤْتَى رِجْلاهُ فَتَقُولانِ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَى ما قِبَلَنا سَبِيلٌ، قَدْ كانَ يَقْرَأُ عَلَيْنا سُورَةَ المُلْكِ، ثُمَّ يُؤْتَى جَوْفُهُ فَيَقُولُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَيَّ سَبِيلٌ، كانَ قَدْ أَوْعَى فِيَّ سُورَةَ المُلْكِ، ثُمَّ يُؤْتَى رَأْسُهُ فَيَقُولُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَى ما قِبَلِي سَبِيلٌ كانَ يَقْرَأُ بِي سُورَةَ المُلْكِ. قالَ عَبْدُ اللهِ: وَهِيَ المانِعَةُ، تَمْنَعُ مِنْ عَذابِ القَبْرِ، وَمَنْ قَرَأَها فِي لَيْلَةٍ فَقَدْ أَكْثَرَ وَأَطْيَبَ»(٥). وهذا موقوف، لكن له حكم الرفع.

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٢٥٤).

(٢) سيأتي في المقدمة الثالثة.

(٣) «التيسير في التفسير»، لأبي حفص النسفي (١٤/ ٥٠٢).

(٤) **حسن**: أخرجه أبو داود (١٤٠٠)، والترمذي (٢٨٩١)، واللفظ له، وابن ماجه (٣٧٨٦)، وأحمد (٧٩٧٥)، وحسنه الألباني، ومحققو المسند.

(٥) **صحيح**: أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٠٢٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٦٥١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨٣٩)، وقال: «حديث صحيح الإسناد».

وقد ذكر الألوسي في تفسيره بعض ما ورد في فضلها، ثم قال: «ولهذا ونحوِه قيل: يُنْدَب قراءتُها كُلَّ ليلة. والحمد لله الذي وفقني لقراءتها كذلك منذ بلغت سنَّ التمييز إلى اليوم، وأسأل الله - تعالى - التوفيق لما بعد، والقبول»[1].

المقدمة الرابعة: مقاصد السورة.

١- بيان عظمة الله في مُلكه، وإبداعِه في خلقه، فهي تبرز هذا الوجود وتدل على خالق الموجود، وتبعث حِسَّ التفكر في هذا الجمال، المبدَع على وجه الكمال.

٢- الوعيد بعذاب جهنم، ومآل الكافرين فيها، وندمهم على تكذيبهم.

٣- الحث على خشية الله في الغيب، وأن السر والجهر في علم الله واحد.

٤- إبراز مظاهر القدرة المطلقة والملكوت الأعظم.

٥- إيراد الحجج والقوارع التي تبطل مذهب المشركين في توحيد الله - تعالى -، وإنكارهم البعث.

(١) «روح المعاني»، للألوسي (١٥/ ٣).

المقطع الأول [١ - ٥]

قال اللهُ - تعالى -: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: ١-٥].

هذه الآيات موعظة ربانية في تمجيد الله والثناء عليه، وبيان بعض مشاهد ربوبيته في الخلق والتدبير. والكلام عليها في الوقفات الآتية:

الوقفة الأولى: الملك لله.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المَلِك، ولم يكن له شريك في المُلك، وهو مالك الملك، له الملك التام المطلق، بيده أزِمَّةُ الأمور، وتصريف الأحوال في الدنيا والآخرة.

فمن كان هذا قَدْرَه، فتبارك، أي: تعاظَم وكثُر خيره. والبَرَكة: هي الزيادة والنماء، والكثرة والاتساع.

وهو فعل ماض، لم يُسْمع استعمالُ المضارع والأمر فيه[١]. وتكرر في القرآن تسع مرات.

وذهب جماعة من العلماء إلى أن هذا اللفظ لا يطلق على غير الله - تعالى -[٢].

ويُذكر أن الواعظ ابنَ السمَّاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ دخل على الخليفة هارون الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو يشرب ماء، فقال الخليفة: عِظني، فقال ابن السمَّاك: يا أمير المؤمنين، أرأيت لو مُنعت هذه الشربة، كم

---

(١) ينظر: «التسهيل لعلوم التنزيل» (١/ ٢٩٠)، و«تاج العروس» (٣٨/ ٣٣٠)

(٢) ينظر: «التسهيل لعلوم التنزيل» (٢/ ٣٩٤)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ١٨٥).

تبذل فيها؟! قال: نصف ملكي! قال: أرأيت لو حُصِرتَ بها، كم تبذل في سبيل إخراجها؟! فقال: نصف ملكي! فقال ابن السمَّاك: مُلك لا يساوي شربة ماء، جدير ألا يُنافَس فيه![1].

- وفي الآية معانٍ عظيمة من أصول مقاصد القرآن، يحسُن الاعتناء بها علما وعملا، منها:

١- كمالُ مُلك الله - عز وجل -، وأن الملك كلَّه له - تعالى -، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

٢- قدرة الله - تعالى - لا حد لها. وسيأتي في أثناء السورة أمثلةٌ على ذلك.

٣- تنزيه الله - تعالى - عن كل عيب ونقص، فقد تبارك سبحانه، أي: تعالى وتقدس.

٤- إرشاد العباد وتعليمُهم أن يُثْنوا على ربهم، ويَلْهَجُوا بتعظيمه.

وعن تمام الملك والقدرة تتفرع سائر الصور والمشاهد التي ترِد في ثنايا السورة.

والمُلك - بضم الميم -: السلطان والقدرة والحُكم، فلله - تعالى - مُلك السماوات والأرض وما بينهما، في الدنيا والآخرة.

والمِلك - بكسر الميم -: من التملُّك، تقول: هذا البيت مِلكي[2].

فصاحب المُلك مَلِك، وصاحب المِلك مالك.

قال الله - تعالى -: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ [الزخرف: ٥١]، يعني: الحكم والسلطان. وليست مملوكة له.

الوقفة الثانية: خلق الله الموت والحياة.

أوجد الله الموت والحياة، والعبدُ يتقلب بينهما، فكان ميتا عدَمًا فأحياه الله، ثم يميته، ثم يحييه حياةً لا موت بعدها، قال الله - تعالى -: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

---

(١) ينظر: «تاريخ الرسل والملوك»، للطبري (٨ / ٣٧٥).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١٠/ ٤٩٢).

ثم بين الحكمة من ذلك، فقال - سبحانه -: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، أي: ليختبركم ويمتحنكم.

وهذا الابتلاء في الدنيا، حيث سُلِّط على العبد الشهواتُ والشيطان والنفس والهوى، وبُيِّن له الطريق، فهو في اختبار، طريق الجنة محفوف بالمكاره، وطريق النار محفوف بالشهوات.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أذل اللهُ ابنَ آدم بالموت، وجعل الدنيا دار فناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء»(١).

الموفَّق من اغتنم هذه الحياة القصيرة بأحسن العمل.

وما أحسنُ العمل؟

ما كان خالصا لله، موافقا سنة رسول الله ﷺ. قال الله - تعالى -: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وما أحسنَ اقترانَ الاسمين الكريمين هنا: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، فهذا مما يضبط بوصلة السير إلى الله، أن يصاحب العبد في مسيره مقام الخوف ومقام الرجاء.

وتُفيد الآية أنه لا بد من العمل، فلا يكفي الإيمانُ القلبي وحدَه.

ويُستنبط منها: تفاضل الأعمال الصالحة، فبعضُها أفضل من بعض، وعلى العبد أن يسعى في معرفة الأفضل، والمسارعة إليه، وهذا من شريف العلم. وقد تكرر في الأحاديث سؤال بعض الصحابة: «**أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟**»(٢).

الدنيا ميدان العمل؛ فلا يغرنك طول الأمل، فالموت يأتي بغتة، والقبر صندوق العمل.

وينبغي للعبد ألا يغفل عن تذكر الموت، بل يكثرَ من ذكره؛ فإنه مُعِين وباعث على العمل وطرد الفتور والكسل، وهو نافع جدا في قصر الأمل، وهو بلسم لغُصَص المصائب والهموم والأحزان، وهو مزهِّد في شهوات الدنيا وحُطامها.

---

(١) «جامع البيان»، للطبري (٢٣ / ١١٨).

(٢) ينظر على سبيل المثال: «صحيح البخاري»، الأحاديث: (٢٦، ٢٧٨٢)، و«صحيح مسلم» (٨٣، ٨٤).

الوقفة الثالثة: السماوات من عظيم خلق الله، وإبداع صنعه.

خلق اللهُ سبع سماوات طباقا بعضها فوق بعض، في نظام مُحكم، لا ترى في هذا الخلق من اختلاف أو عيب، قال الله – تعالى –: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

تأمل هذه السماء، ثم أعِدْ بَصَرك مُتأمِّلا فيها، فهل ترى فيها أيَّ شُقوق أو صُدوع؟!

﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق: ٦].

ثم كَرِّر النظر إلى السماء مرة بعد أخرى، يرجِعْ إليك بصرُك صاغرا ذليلًا؛ لعَجْزِه عن العثور على أي شقوق في السماء؛ لأن خالقها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإذا جاء يومُ القيامة انشقت هذه السماء وتصدعت، ثم قُلِعت وأُزِيلت من مكانها كما يُكشط الجلد عن الشاة.

وقد تكرر ذكر السماء في كتاب الله – تعالى – في أكثر من ثلاث مئة موضع.

وأرشدنا الله إلى النظر والتفكر في هذه السماء، فقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾ [ق: ٦]، وإنها لخلق عظيم، أُحكِم بنيانها، وزُينت أرجاؤها، وجُعلت سبعا طباقها.

فائدة.

خلق الله الأرض أولًا قبل السماء في يومين غير مَدْحُوَّةٍ، ثم استوى – أي قصد – إلى السماء فسواهن سبعًا في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك في يومين، فصار المجموع ستة أيام.

وبهذا جمع ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا بين الآيات: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِى يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِى يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩-١٢]،

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠]، ومعنى دحاها: بسطها وأَوْدَع فيها منافعها[١].

الوقفة الرابعة: النجوم زينة السماء الدنيا.

بعد الحديث عن السماوات السبع، انتقل إلى السماء الدنيا التي يراها الناس، وبيَّن أنه زيَّنَها بمصابيح، وهي النجوم المضيئة.

وسميت النجوم مصابيح على التشبيه بها في حسن المنظر، وفي الإضاءة ليلا.

لما أخبر اللهُ - تعالى - عن الكمال في خلق السماوات بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾، جاء الخبرُ عن جمالها، فاجتمع فيها الكمال والجمال!

والنجم: جسم فلكي كروي لامع، وهي تتفاوت في أحجامها وإضاءتها.

ومن المستحيل للبشر معرفة عدد النجوم الموجودة، لكن يقدِّر علماء الفلك أن في مجرتنا (درب التبانة) وحدها يوجد حوالي ثلاث مئة مليار نجم.

وتكرر ذكر النجم (بالإفراد) أربع مرات في القرآن، وتسع مرات بصيغة الجمع.

والشمس: نجمٌ متوسط الحجم إذا قيست بالنجوم الأخرى، وهي تكبر الأرض بمليونٍ وثلاث مئة ألف مرةٍ حجما، وتبعد عنها مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر وسطيًا، ويقطع ضوءُ الشمس هذه المسافة في ثمان دقائق.

وهذه النجوم مُسخَّرة بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تسجد له، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

وأقسم اللهُ بها في مواضع من كتابه.

---

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٥٨٤).

وهذه النجوم لها حِكَم:

١- زينة للسماء الدنيا.

٢- رُجُوم للشياطين التي تسترق السمع، فتكون هذه النجوم حفظا للسماء.

٣- علامات يُهتدَى بها في البر والبحر. قال الله - تعالى -: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ**﴾ [الأنعام: ٩٧].

٤- أمان للسماء.

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم صَلَّوا العشاء مع رسول الله ﷺ، وبعد الصلاة رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «**النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ ما تُوعَدُ**»(١).

قال الإمام النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه: «قال العلماء: الْأَمَنَة - بفتح الهمزة والميم -: الأمْن والأمَان، بمعنًى. ومعنى الحديث: أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية. فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة، وهَنَت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت»(٢).

ولقد سلَبَتْنا حياةُ المَدَنِية - بما فيها من تلوث الهواء، وأضواء الكهرباء - تسريحَ النظرِ في هذه الآيات: السماءِ وسَعَتها، والنجومِ وزينتها.

وكذلك الإلفُ والعادة أذهبت روعةَ المنظر وبهاءَ المشهد، في هذا الكون الجميل العجيب الدقيق.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١).

(٢) «شرح النووي على مسلم» (١٦/ ٨٣).

المقطع الثاني [٦ - ١١]

قال اللهُ - تعالى -: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك: ٦-١١].

هذا المقطع موعظة من مواعظ القرآن، يُبيِّن بعض صفات جهنم، ومشهدا من مشاهد الحوار بين خزنة النار وأهلها، ونَدَمَ هؤلاء المُعَذَّبين حين لا ينفع الندم.

الوقفة الأولى: النار دار العذاب.

النار دار أعدها اللهُ لعذاب من كَفَر به وعصاه.

وتعددت أسماؤها في القرآن، وذُكِر في هذا المقطع اسمان:

١- **جهنم**.

وقد ورد في القرآن في اثنين وسبعين موضعا. وهو اسم يبُث الرعب والفزع في النفس، وأصل هذه الكلمة في اللغة: البئر البعيدة القَعْر[١]، وسميت النار بها لبُعد قعرها.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً (صَوْتُ السُّقُوطِ)، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَدْرُونَ ما هذا؟**» قالَ: قُلْنا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قالَ: «**هَذا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِها**»[٢].

---

(١) ينظر: «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٤).

٢- السعير.

ورد في القرآن ثماني مرات مُعَرَّفًا - منها ثلاث في هذه السورة -، وثماني مرات مُنَكَّرًا.

وأصل هذه المادة يدل على الاشتعال والاتقاد والارتفاع[١]، فهي فَعِيل بمعنى مَفْعُول.

وهو يفيد شدة اشتعال النار واتقادها وارتفاع لهبها، وهذا الاشتعال دائم لا يخبو ولا ينطفئ.

فهذه النار قعرها بعيد، وحرها شديد.

لها سبعة أبواب، وهي دركات بعضها أسفل بعض، كما أن الجنة درجات بعضها فوق بعض.

قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وقد تكاثرت النصوص في وصف النار وعذابها.

الوقفة الثانية: مشهد من فظاعة جهنم.

قال الله - تعالى -: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾.

أصوات مرعبة، ونار ملتهبة متغَيِّظة أشد الغيظ على من فيها.

يبيِّن اللهُ - تعالى - أن هذه النار إذا أُلقي فيها الكُفار سمعوا لها صوتا عاليا فظيعا منكرا، وهذه النار تغلي من شدة تلهبها وتوقدها.

توشك جهنم أن تتقطع وتنفصل بعضُ أجزائها عن بعض؛ لشِدة غيظها على أهلها - والغيظُ شدة الغضب -، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

وأفاد قولُه تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾، وقولُه بعدها: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾: أنهم يُلْقَون فيها إلقاء، ولا يدخلون دخول كرامة، وهم حين الإلقاء يُدفعون بشدة ومهانة إلى جهنم دفعا عنيفا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

نار جهنم شررُها كالقَصْر، الشرارة الواحدة كالقصر المشيد المرتفع.

طعامهم: الزَّقُّوم والغِسْلِين والضَّرِيع. وشرابهم: الحميم والغَسَّاق والصديد. وثيابهم من نار.

---

(١) ينظر: «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٧٥).

الوقفة الثالثة: حوار الحسرة والندم.

هذا حوار بين خزنة جهنم ومن يُلقى فيها من الكافرين.

قال الله – تعالى –: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾، أي: كلما أُلقِي في جهنم جماعة من الكافرين، قال لهم خزنتها من الملائكة مُوَبِّخِين: ألم يأتكم في الدنيا نذير يُنذِرُكم عذاب الله – تعالى –؟!

قال الكافرون لخزنة جهنم: بلى، قد جاءنا نذيرٌ يُنذِرُنا عذابَ الله، ولكِنَّنا كذَّبْنا وقُلْنا للمُنذِرين: ما نَزَّل اللهُ على أَحد من الخلق أيَّ شيءٍ من الوحي!

وقلنا – أيضا – لهؤلاء المُنذِرين: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾، أي: ما أنتم إلا في ذهاب بعيد عن الحقِّ والصواب!

ثم رجَعُوا على أنفسهم، وقالوا في حسرة وندم: لو كُنَّا في الدنيا نَسمع سَمعا يُنتفَع به، أو نَعقِل عقلا يُنتفع به، ما كنا اليوم في عِداد أهل النار، ومن جملة المُخَلَّدِين في عذابها.

فاعترفوا بذَنْبِهم الذي استَوجَب لهم الخلودَ في السعير، وهو الكفر وتكذيب الرسل، ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: فبُعْدا لأهل النار المُلازِمين لها، مِن رحمة الله – تعالى –.

وذكَر الله نظيرَ هذا الحوار في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وفي الآية فضيلة السمع والعقل؛ فهما أصلُ العِلم وبهما يُنال؛ فإنهم قالوا: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وقولُهم: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وقد كانوا يَسمعون، ولكن لا يَسمعون ما ينفعهم في الآخرة حين أعرضوا عن تَلقِّي دعوة الرسل. وكانوا يعقلون، ولكن لا يعقلون ما ينفعهم في الآخرة، حين تركوا التَّدبُّر فيما جاء به الرسل من الآيات والبينات، كما قال الله عنهم: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧].

وهذا يؤخذ منه فوائد:

١- أن الشيء يُعتبر بثمرته ومنفعته. كما في قول الله - تعالى -: ﴿**صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ**﴾ [البقرة: ١٨]، فلمَّا ذهبت عنهم منفعة الكلام ومنفعة الاستماع ومنفعة البصر، نُفِيت عنهم، مع أن أصل الحواس موجود: يتكلمون ويسمعون ويبصرون، لكن نُفِيت عنهم هذه الحواس مع وجودها؛ لانتفاء المنفعة الحقيقية منها.

٢- أن أهل النار يسمعون ويتكلمون ويدركون. وجاء هذا في آيات أخرى، كقول الله عنهم: ﴿**وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ**﴾ [الزخرف: ٧٧]، وهذا مما تُخالِف فيه نارُ الآخرة نارَ الدنيا، فنار الدنيا مَن دخلها تعَطَّل إدراكُه.

٣- أن الأدلة نوعان: سمعية وعقلية؛ لقول الله - تعالى -: ﴿**وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ**﴾، وفيه تقديم الأدلة السمعية على العقلية.

٤- الانقياد لشرع الله عاصم من عذاب النار.

٥- عذاب أهل النار يشمل العذاب الجسدي والنفسي، من الحسرات والندم. ولهذا نظائر في القرآن، منها قول الله - تعالى -: ﴿**وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٧]، وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَدْعُونَ مالِكًا فُلا يُجِيبُهُمْ أَرْبَعِينَ عامًا، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿**إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ**﴾، ثُمَّ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فَيَقُولُونَ: ﴿**رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، فَلَا يُجِيبُهُمْ مِثْلَ الدُّنْيا، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿**ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، ثُمَّ يَأْيَسُ الْقَوْمُ، فَما هُوَ إلَّا الزَّفِيرُ وَالشَّهِيقُ»(١).

(١) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤١٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٨٧٧٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٤١٧١)، وصححه الألباني.

المقطع الثالث [١٢ - ١٥]

قال اللهُ - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٢-١٥].

الوقفة الأولى: مقام المراقبة.

إن الذين يخافُون الله وهم لم يَرَوه في الدنيا، ولم يَرَوا عذابه، فيُطيعونه ويتركون معصيته حتى في خلواتهم حيث لا يراهم الناس: لهم مَغفِرة من الله لذنوبهم. والمغفرة: التجاوز عن الذنب مع ستره، فحصلت لهم السلامة من النار، ولهم مع ذلك: أجر كبير وثوابٌ عَظيمٌ، وهو نعيم الجنة، ورؤية الله - تعالى -، فزال المَرْهُوب، وحصل المطلوب. ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١-٣٣].

والخشية أخص من الخوف، فهي خوف مقرون بمعرفة وتعظيم. وأعرف الناس بالله هم العلماء، قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فخشية الله ثمرة العلم والإيمان، ولذا كان أرفعُ الناس منزلة فيها محمدا ﷺ، الذي قال عن نفسه: «**فَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**»(١)، ثم الأنبياء عليهم السلام: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ والشَّهادَةِ**»(٢).

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه النسائي في «السنن» (١٣٠٦)، و ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٣٤٨)، وصححه الألباني.

الخوف من الله وخشيتُه في الخلوات والسر؛ له شأن عند رب العالمين، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «رَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خالِيًا فَفاضَتْ عَيْناهُ»(١).

خشية الله في الخلوة دليل على قوة إيمان، وطهارة قلب، وصفاء نفس.

إذا مـا خَلَـوْتَ الـدَّهْرَ يَوْمًـا، فَـلا تَقُـلْ ... خَلَـوْتُ، وَلَكِـنْ قُـلْ: عَلَـيَّ رَقِيْـبُ

وَلا تَحْسَـبَنَّ اللهَ يَغْفُـلُ سـاعَةً ... وَلا أَنَّ مـا تُخْفِـي عَلَيْـهِ يَغِيْـبُ(٢)

من كان يصارع الشهواتِ وذنوبَ الخلوات، فدواؤه الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما حفظ الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من فتنة النساء بخوفه من ربه، فقال: ﴿**مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ**﴾ [يوسف: ٢٣].

قال إبراهيم بن سفيان: «إذا سكن الخوفُ القلبَ أحرق مواضع الشهوات وطَرَد الدنيا»(٣).

ومن آثار ذنوب الخلوات وآفاتها: ثِقَلُ الطاعات، والكسلُ عن الفرائض والنوافل، وضَعْف حلاوة الإيمان، وذَهابُ حلاوة المناجاة.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي الجملة: فتقوى الله في السر هو علامة كمال الإيمان، وله تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبه الثناءَ في قلوب المؤمنين»(٤).

ثم قال الله - تعالى -: ﴿**وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ**﴾، أي: أخفُوا كلامكم - أيها الناس - أو أظهِروه؛ فكلا الأمرين

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٦٠).

(٢) هذان البيتان - على شهرتهما - اختُلِف في قائلهما كثيرا، والذي في «البيان والتبين»، للجاحظ (٣/ ١٣٣)، و«عيون الأخبار»، لابن قتيبة (٢/ ٣٥٠)، أنها لعبد الله بن أيوب التيمي من أبيات ليس منها البيت الثاني.

(٣) «شعب الإيمان» (١/ ٥١٣).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤١٠).

سواء عند الله، فلا يَخفى عليه شيء مما تسرونه أو تجهرون به من أقوال، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: إن الله ذو علم بالغ تامٍّ بما في قلوب العباد من العقائد والنيات والأسرار والخواطر التي لم يُتكلَّم بها، فما تكَلَّم به الإنسان سرًّا أو نطق به جهرًا أَولى وأحرى أن يعلمه اللهُ – سبحانه –، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، هذا دليل عقلي على كمال علمِه – تعالى – بالسر والجهر، وهو: أنه الخالق، فكيف يَخفى عليه – سبحانَه – ما في الصدور من أسرار هو خلَقها؟! وهو العالِم بدقائق الأشياء، فيدبرها ويسوقها لعباده برفق وخفاء من حيث لا يشعرون؛ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالمٌ بما بَثَّه في القلوب، وهو العالِم ببواطن الأشياء وخباياها، فلا تخفى عليه خافية.

الوقفة الثانية: تذليل الأرض.

لمَّا قال اللهُ – تعالى – في الآية السابقة: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ذكر مثالا على هذا اللطف بعباده، فقال – سبحانه –: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، أي: هو الذي جَعَل لكم الأرضَ مُذَلَّلةً مُوَطَّأةً كالجَمَل الذَّلُول، الذي كيفما يُقاد يَنقاد، بحيثُ تتمكنون من الانتفاع بهذه الأرض، بالسكن والمشي والتنقل وغير ذلك، ولم يجعلها مُسْتَصعبة ومُمْتَنعة على من أراد ذلك منها، وقد جعلها الله – تعالى – أيضا: بساطا وفراشا ومهادا وقرارا.

وقولُه – تعالى –: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾، معناه: فامشُوا في جوانبِها ونواحيها، وسافِروا حيث شئتُم من أقطارها لطلب الرزق والمكاسب.

وقولُه – سبحانه –: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، أي: وكُلُوا من رزق الله الحلال الذي أودَعَه فيها، وأقدركم على إخراجه منها.

وقولُه – تعالى –: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، أي: وإلى الله وحده لا إلى غيره المرجعُ بعد موتكم، فتبعثون من قبوركم يوم القيامة للجزاء على أعمالكم.

وفي الآية إيماء إلى طلب الرزق والمكاسب.

وقد قال اللهُ - عز وجل -: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال - سبحانه -: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]، أي: سخَّره لطلب المعاش، وقال - تعالى -: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وامتن الله على عباده بتنويع المعايش وأسباب الرزق في هذه الأرض، فقال - جل وعلا -: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الحجر: ١٩-٢٠]، أي: وجعلنا لكم فيها ما به تعيشون من الحَرْث، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب وغيرها.

بل حتى في الحج - وهو موسم عباده - أُبيح التكسُّبُ وطلب الرزق والربح بالتجارة في الموسم، قال الله - تعالى -: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وعن رافع بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ؟ قَالَ: «**عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ**»(١).

وفي هذا المال أبواب خير كثيرة إذا أُخِذ من حلال وصُرف في وجوه الخير: من نفقة بالمعروف، وصدقة وإحسان وإكرام، فقد سمى الله المالَ خيرا في قوله - تعالى -: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٢٦٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٩١٨)، وحسنه محققو المسند.

الأنبياء صفوة البشر، وأفضل الناس، وقد كانوا أصحاب كسب وعمل مع تمام التوكل على الله – تعالى –. فهذا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ امتهن النجارة، وعَمِل في صناعة الفُلك، وداود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان حدادا، وزكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان نجارا، وعَمِل يوسفُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واليًا على خزائن مصر، واشتغل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في رعي الماشية عشر سنين. وأما نبيُّنا ﷺ فقد كان يشتغل بالتجارة في أول الأمر، وسافر إلى الشام في تجارة خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وعَمِل – أيضا – في رعي الغنم.

وهذا الخطاب يشمل الأمَّة – أيضا –: بحَثِّها على السعي والعمل والجِدِّ، والمشي في مناكب الأرض مِن كُلِّ جانب؛ لتكون لها الريادة، ويتحقق لها الغنى والاستغناء عن غيرها.

والأمة اليوم قد فرَّطَت في دينها ودنياها، وصارت الريادة والتقدم للأمم الكافرة في الغرب والشرق.

وفي ختم الآية بقول الله – تعالى –: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، إشارة إلى أمرين:

الأول: أنه مع السعي في جوانب الأرض وطلب الرزق، إلا أن هذا لا يَطْغى على القلب، فيركن إلى الدنيا، ويغفل عن الآخرة، بل عليه أن يعرف قدر هذه وتلك. الدنيا ممر والآخرة مقر، أنت هنا عابر سبيل سرعان ما تغادر إلى دار الخلود والبقاء، فلا تغُرَّنَّك الحياة الدنيا وزخرفها.

الثاني: التحذير في الكسب وطلب الرزق أن تسلك الطرق المحرمة، فالمال فتنة عظيمة للنفس، وكم سقط لأجله من أناس كانوا من الصالحين. فاحذر؛ فإنك محاسب وصائر إلى الله في يوم الأهوال والنشور.

المقطع الرابع [١٦- ١٩]

قال اللهُ - تعالى -: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٦-١٩].

الوقفة الأولى: الحذر من عقاب الله في الدنيا.

قوله - تعالى -: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾، أي: يا أيها الكافرون، هل أَمِنْتُم اللهَ الذي هو في العُلُوِّ مُستوٍ على عرشه فوقَ سماواته: أن يَخسِف بكم الأرض عُقوبة لكم على كُفرِكم به، فإذا بها تَضطرب بكم ذَهابا وإيابا؟!

وقوله - سبحانه -: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾، أي: أمْ أَمِنتُم اللهَ الذي هو في العُلُوِّ فوقَ السماء: أن يُرسِل عليكم حجارة يَرميكم بها، كما فعل بقوم لوط وأصحاب الفيل؟!

ونظير ما في الآيتين قول الله - تعالى -: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٨].

وقوله - تعالى -: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾، أي: فستَعلمون حين يَحِلُّ العذابُ، كيف يكون إنذاري، وعاقبةُ مَن كذَّب به.

وتكرر في الآيتين: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، وللعلماء فيها قولان:

الأول: أن السماء بمعنى العلو، وهذا من معاني السماء في اللغة: كل ما علا وارتفع[١]، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [الأنعام: ٩٩]، والمطرُ ينزل من السحاب لا من السماء، لكنه سمي سماء باعتبار علوه. فيكون المعنى هنا: ءَأَمِنتُم من في العلو؟!

---

(١) ينظر: «الصحاح» (٦/ ٢٣٨٢).

الثاني: أن «في» بمعنى «على»، كما قال تعالى: ﴿**وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ**﴾ [طه: ٧١]، أي: عليها.

ولا يمكن أن تكون «في» بمعنى الظرفية؛ لأن الله - عز وجل - لا يحيط به شيء من خلقه، ولا تحويه مخلوقاتُه.

وعلى القولين، ففيه إثبات العلو لله - تعالى -.

عن معاوية بن الحَكَم السُّلَميِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ لَطَمَ جارِيةً لَهُ، وَأَتَى بها النَّبيَّ ﷺ يُرِيْدُ عِتْقَها، فَسَأَلَها النَّبِيُّ ﷺ: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّماءِ. قالَ: «**مَنْ أَنا؟**» قالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قالَ: «**أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّها مُؤْمِنَةٌ**»(١).

وقولُ الله - تعالى -: ﴿**وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾، أي: ولقد كذَّب الكُفَّارُ الذين مِن قبل مشركي قريش رُسُلَهم، وهؤلاء كقوم نوح وعاد وثمود، وقومِ لوط، وقوم شعيب، وقوم فرعون، وغيرِهم من الأمم الماضية التي أهلكَها الله بعذابه في الدنيا، فكيف كان إنكاري عليهم تكذيبَهم حينَ عَذَّبْتُهم؟! وهذا الاستفهام للتقرير والتهويل. والجواب: لقد كان شديدا حين نزل بهم العذاب. كما قال الله - تعالى -: ﴿**وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾ [الحج: ٤٢-٤٤].

وفي هذه الآيات فائدة مسلكية مهمة للعبد: أن يكون خائفا غير آمن من عذاب الله - تعالى -، ﴿**قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**﴾ [الأنعام: ٦٥]. ﴿**أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٩٩].

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).

الوقفة الثانية: الطير من آيات الله في الكون.

في قول الله – تعالى –: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾، ينتقل السياق بعد التهديد إلى الدعوة للتأمل والتفكُّر، كما بدأت أول السورة.

والمعنى: أو لم يَرَ هؤلاء المشركون المكَذِّبون إلى الطير، وهي تطير فوقهم في الجو تبسط أجنِحتها وتمدها تارة، وتضمُّها إلى جنوبها تارة أخرى، للاستمرار في الطيران؟! فقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾، أي: صافَّاتٍ أجنحتَها، فحذف المفعول للعلم به.

وهذا الطير في طيرانه بين بسط جناحه وقبضه – والبسطُ أغلب – باق في الهواء، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، أي: ما يُمسِك تلك الطيور عن السقوط من السماء إلا الرحمن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بما أودع في خِلقَتها من الخصائص العجيبة. ومثل ذلك طيران الطائرات في الجو ساعات طويلة، وهي تحمل أطنانا من الناس والمتاع والحديد، بأسباب يسرها الله وهدى الناسَ إليها.

يـــا رَبِّ، عَفْـــوَكَ لا تَأْخُـــذْ بِزَلَّتِنـــا ... وارْحَـمْ – أَيـا رَبِّ – ذَنْبًـا قَـدْ جَنَيْنـاهُ

كَـــمْ نَطْلُـــبُ اللهَ فِـــي ضُرٍّ يَحِـــلُّ بِنـــا ... فَـــإِنْ تَوَلَّـــتْ بَلايانـــا نَسِينـــاهُ

نَـدْعُوهُ فِـي البَحْـرِ أَنْ يُنْجِـيْ سَـفِيْنَتَنا ... فَـإِنْ رَجَعْنـا إِلـى الشَّـاطِيْ عَصَـيْناهُ

وَنَرْكَـبُ الجَـوَّ فِـيْ أَمْـنٍ وَفِـيْ دَعَـةٍ ... فَمـــا سَـــقَطْنا لِأَنَّ الحـــافِظَ اللهُ

ومشهد طيران الطائر في الهواء، وهو يمُد جناحَيْه ويقبِضُهما، وينحرف ويتقلَّب في السماء .. مشهد بديع، يُبهج الناظر، ويسُر الخاطر، وينادي على بديع خلق الله.

وقول الله – تعالى –: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾، معناه: إن الله بكل شيء من مخلوقاته بصير، وكلها تحت تدبيره بما تقتضيه حكمتُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والنظر في آيات الله الكونية مما تكرر في القرآن، وهو من المهمات للمسلم أن يَسرَحَ نظرُه وفكرُه في هذا الملكوت، ويتأمل في إبداع الخالق، وإتقان الصنعة، فيثمرَ له ذلك مزيدَ تعظيم وخشيةٍ لربه، ومزيدَ إقبال ونشاط في عبادته.

المقطع الخامس [٢٠-٣٠]

قال اللهُ - تعالى -: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٢٠-٣٠].

خلاصة المقطع.

هذه الآيات تتضمن تقريرات وحوارات مع المشركين تجمع بين حجة العقل، وموعظة القلب.

ويمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

١- تقرير ملكوت الله وقدرته في النصر والرزق، ومن ذلك: الماء - مادة الحياة -، لو غار في الأرض فمن يأتيكم به؟!

٢- تقرير التباين بين من يسير في طريق الهداية وطريق الغواية.

٣- تقرير أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلقهم وأعطاهم آلاتِ المعرفة، ثم يحشرهم يوم القيامة للحساب.

٤- استبعادهم قيامَ الساعة وسؤالُهم عن موعدها، وجوابهم: أنَّ عِلمَ ذلك عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده، ومهمة الرسول ﷺ هي الإنذار والبيان.

٥- حكاية حالهم إذا قامت الساعة ورؤية ما وُعِدوا به.

٦- تقرير وقوع العذاب الأليم عليهم مهما وقع للنبي ﷺ ومَن معه مِن هلاك أو حياة.

٧- الاعتزاز بالإيمان بالله والتوكل عليه، واليقين بصحة الطريق، وتمييز الحق من الضلال.

الكلام على الآيات.

قولُ الله – تعالى –: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: أم مَن هذا الذي هو عَونٌ وناصِرٌ لكم – أيها الكافرون –، يدفع عنكم العذابَ غيرُ الرحمن؟!

ونظيرُه قول الله – تعالى –: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢-٤٣]، وقوله – سبحانه –: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. والمقصود بالآية تحقير شأن هؤلاء الجند.

وقولُه – تعالى –: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾، أي: ما الكافرون بالله إلَّا في غُرور عظيم قد أحاط بهم، خدعهم الشيطان فاغتروا به!

والغُرور صفة في النفس تجعلها تُعرِض عن الحق جحودا وعنادا وجهلا.

وقولُ الله – تعالى –: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾، أي: أم مَن هذا الذي يأتيكم بالرِّزق – أيها الكافرون – إن منَعَه الله عنكم؟!

فلو أنه – تعالى – أمسك أسباب الرزق كالمطر والنبات وغيرهما، لما وُجِد رازق سواه.

ونظيرُه قول الله – تعالى –: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]، وقولُه سبحانه: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].

وجمع في الآيتين بين النصرة والرزق، كما جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وقولُ الله – تعالى –: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، أي: لم يَرجِعوا عن تكذيبهم وكفرهم، مع ما ذُكِر من دلائل وحجج، بل استمروا وتمادَوْا في طغيانهم وعنادهم وتكبُّرهم، ونُفورهم عن الحق، وهروبهم منه.

واللَّجاج: «التَّمادي والعِناد في تعاطي الفعل المَزجورِ عنه»[١].

والعُتُو: الطُّغيان والمُعانَدة والاستكبار[٢].

والثمرة المسلكية من هاتين الآيتين أن يعلِّق العبدُ قلبَه بمن بيده الأمر، وإليه يرجع الأمر كله، وأن يعمِّق هذا المعنى في سويداء قلبه، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وأن يتوكل على الله وحدَه، لاسيما في هذين الأمرين المذكورين في الآيتين: النصر، والرزق. بالنصر يزول المرهوب، وبالرزق يحصل المطلوب.

وقولُ الله - تعالى -: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: أفمَن يَمشي مُنكِّسا رأسَه لا يُبصِر طريقه، فيسقط متعثرا ويخِرُّ على وجهه، أهدى أم الذي يمشي معتدلا قائما، رافعا رأسَه ناصبا وجهه، سالما من التعثُّر مبصرا طريقَه، سائرا على درب مُستَوٍ واضح لا اعوجاج فيه؟!

وهذا مَثَلٌ للكافر والمؤمن، الكفر ضلال وغواية، والإيمان استقامة وهداية.

قال قتادة في قول الله - تعالى -: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾، «هو الكافر عَمِل بمعصية الله، فحَشره الله يوم القيامة على وجهه»[٣].

---

(١) «المفردات في غريب القرآن» (ص: ٧٣٦).

(٢) ينظر: «الفروق اللغوية»، للعسكري (ص: ٢٣٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٢٦٨).

وقولُ الله – تعالى –: ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، قال: المؤمن عمِل بطاعة الله، فحَشره الله على طاعته، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣](١).

وقولُه – تعالى –: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾، الخطاب فيه للرسول ﷺ: قل للمشركين المكذِّبين: اللهُ وحدَه هو من أوجدكم من العدم. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، أي: وهو الذي جعل لكم السمعَ لتسمعوا آياتِ الله – تعالى –، والأبصارَ لتنظروا خلق الله – عز وجل –، والأفئدة لتتفكروا وتعتبروا فيما سمعتم وشاهدتم. وهذه آلات العلم والمعرفة.

وقولُه – تعالى –: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، أي: قليلا ما تشكرون الله – تعالى – على ما آتاكم من السمع والأبصار والأفئدة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فعلى المرء أن يجعل شكرَه لله على هذه النعم بصرفها في طاعته، والنَّأْي بها عن معصيته، فيسمعَ ما يحبه الله، ويبتعدَ عن سماع ما حَرَّم، ينظر إلى ما يُحِب، ويصرف بصره عما حَرَّم، يُقْبِل بقلبه على ما يحب ربُّه، ويصرف قلبَه عما حَرَّم، وهذه الثلاث من أجَلِّ النعم، وأبواب العلم.

وقولُ الله – تعالى –: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: قل – يا محمد –: الله هو الذي نَشَركم في أقطار الأرض وأرجائها.

وقولُه – تعالى –: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، أي: وإلى الله تُجْمَعون بعد هذا التفرُّق والشتات، فيبعثكم من قبوركم للحساب والجزاء.

وقولُه – تعالى –: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: ويقول المشركون: متى يكون ما تعِدُوننا من الحشر إلى الله، إن كنتم صادقين في وعدكم هذا؟! وقولهم هذا من باب التهكم والاستبعاد.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٢٦٩).

وقولُ الله – تعالى –: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: قل – يا محمد – لهؤلاء السائلين: إنما علم وقت مجيء القيامة عند الله وحده، لا يعلمُه أحد سواه، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: وما أنا إلا مُنذِر لكم عذابَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إن كفرتم، إنذارا بيِّنا واضحا تقام به الحُجَّة عليكم.

وهكذا ورثة الأنبياء – وهم العلماء والدعاة – وظيفتُهم: الدعوة والبيان. وأما هداية القلوب، ونزول العقاب، فإلى الله – تعالى –.

ويُستفاد من الآية: أن العلم بالقيامة غيرُ العلم بوقت القيامة، فالأول حاصل للنبي ﷺ ومن آمن به، أما الثاني فلا يعلمه إلا الله وحده.

وقولُ الله – تعالى –: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: فلمَّا رأى أولئك الكافرونَ ما وُعِدُوا به قريبا منهم وعايَنوه، ساءهم وأفزعهم، وأقلق أفئدتهم؛ فتغيرت وجوهُهم وقَبُحَت، وعَلَتْها الكآبة!

قال الله – تعالى –: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٤-٤٥]، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، وحينذاك يظهر فرق بين وجوه المؤمنين ووجوه الكافرين، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٤١].

وقولُه – تعالى –: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾، أي: وقِيلَ لهم يوم القيامة تقريعا وتوبيخا: هذا هو العذاب الذي كنتم تطلبونه وتسألون تعجيله؛ تكذيبا واستبعادا لوُقوعه.

وقولُه – تعالى –: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾، أي: قل – يا محمد – لهؤلاء الذين يتضجَّرون منك، ويتمنَّون هلاكك والمؤمنين معك: أرأيتُم إن أماتني اللهُ ومن معي من المؤمنين بعذاب أو غيره، أو رحمنا، ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: لا ينفعُكم

وقوعُ ما تتمنَّون لنا من الهلاك، فسَواء أهلكَنا اللهُ أو رحمنا، فلا نجاة لكم من عذابه الأليم ما دمتم مُصرِّين على الكُفر به. وفي هذا إشارة إلى أن الرسول والمؤمنين لا يَأْمنون عذابَ الله، فالمؤمن يسير إلى ربِّه، مخلصا في عبادته، يرجو رحمته، ويخاف عذابه.

وقد كان الكفارُ يتمنون موتَ النبي ﷺ، كما يدل عليه قول الله - تعالى -: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وتآمروا على قتله، كما قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومُقابلة ﴿أَهْلَكَنِىَ﴾ بِـ﴿رَحِمَنَا﴾ يدل على أن المراد: أو رحمنا بالحياة؛ فيفيد أن الحياة رحمة، وأنَّ تأخير الأجل من النِّعَم. وحياة المؤمن رحمة لأنه تكثُر له فيها بركة الإيمان والأعمال الصالحة.

وقولُه - تعالى -: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، أي: قل لهم - يا محمد -: هو ربنا الرحمن آمنا به، وعليه وحدَه اعتمدنا.

وقولُه - تعالى -: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: فستعلمون عند مجيء العذاب مَن هو في خطأ واضح وذَهاب بيِّن عن الحق: أنحن أم أنتم؟!، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وفي ذكر التوكل هنا تنويه بشأنه، وأنه من مقامات الدين العظيمة.

قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾، أي: قل لهم - يا محمد -: أرأيتم إن أصبح ماؤكم غائرا في الأرض بحيث لا تقدِرون على تناوله أو استخراجه، ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾، أي: فمن يأتيكم - إذن - بماء ظاهر جار على وجه الأرض تراه العيون؟! لا يقدر على ذلك أحدٌ غيرُ الله - عز وجل -.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

ولما افتتح السورة بذِكْر عظيم مُلْكِه وأنه خالق الموت والحياة، ختمَها بذِكْر الماء الذي هو سببٌ للحياة، وعدمُه سببٌ للموت.

وذَكَر بعض المفسرين أن بعض الفساق تُلِيت عنده هذه الآية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾، فقال: تجيء به الفؤوس والمعاول، فذهب ماءُ عينيه[1].

نعوذ بالله مِن الجرأة على الله وعلى آياته.

❋ ❋ ❋

(١) «الكشاف»، للزمخشري (٤/٢٨٨).

فهرس الموضوعات

مقدمات بين يدي السورة ٢
المقدمة الأولىٰ: مكية السورة. ٣
المقدمة الثانية: أسماء السورة ٣
المقدمة الثالثة: فضل السورة. ٤
المقدمة الرابعة: مقاصد السورة. ٥
المقطع الأول [١ - ٥] ٦
الوقفة الأولىٰ: الملك لله. ٦
الوقفة الثانية: خلق الله الموت والحياة. ٧
الوقفة الثالثة: السماوات من عظيم خلق الله، وإبداع صنعه. ٩
فائدة. ٩
الوقفة الرابعة: النجوم زينة السماء الدنيا. ١٠
المقطع الثاني [٦ - ١١] ١٢
الوقفة الأولىٰ: النار دار العذاب. ١٢
الوقفة الثانية: مشهد من فظاعة جهنم. ١٣
الوقفة الثالثة: حوار الحسرة والندم. ١٤
المقطع الثالث [١٢ - ١٥] ١٦
الوقفة الأولىٰ: مقام المراقبة. ١٦
الوقفة الثانية: تذليل الأرض. ١٨
المقطع الرابع [١٦- ١٩] ٢١
الوقفة الأولىٰ: الحذر من عقاب الله في الدنيا. ٢١
الوقفة الثانية: الطير من آيات الله في الكون. ٢٣

المقطع الخامس [٢٠- ٣٠] ٢٤
خلاصة المقطع. ٢٤
الكلام على الآيات. ٢٥
فهرس الموضوعات ٣١